# المتنبي يلهب النفوس بتوجعه وتفجعه

إن النفوس لا يحركها أي كلام، ولا يهزها أي حديث؛ لأن الله خلقها عارفة مميّزة، تفرق بين الجميل والقبيح والجيد والرديء، والشعراء درجات في اقتدارهم على مخاطبة النفوس، وأظن المتنبي بلغ الغاية في إلهاب نفوس سامعيه، وتحطيم الحواجز بينه وبين محبيه، لقد سبقه كثير من الشعراء إلى تلك المعاني التي جاد بها، لكنه كساها رونقًا وحياة ومتعة فهذا أبو تمام يذكر المصلحة من المصائب بقوله:

**والحادثاتُ وإن أصابكَ بؤسُها فهو الذي أنباكَ كيفَ نَعيمُها**

لكن المتنبي يسوقها في هذه التحفة الرائعة:

**ومن العداوةِ ما ينالك نَفعهُ ومن الصداقةِ ما يضرّ ويؤلمُ**

فيطوف بعالم المعنى الأشمل الأعم في لفظ مترقرق بهيج.

ويقو شاعر إيران السعدي الشيرازي:

**بكتْ عيني غداةَ البين دمعًا وأخرى بالبكى بخلت علينا**

**فعاقبت التي بالدمع ضنت بأن أغمضتَها يوم التقينا**

لكن المتنبي سبقه فحفر في ذاكرة الأجيال، ونقش في ضمائر الناس قوله:

**إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ تبين من بكى ممن تَباكَى**

ويقول دانتي شاعر إيطاليا: إن السخفاء يجدون لذة في تتبع عثرات العظماء، ولكن المتنبي يتفوق عليه ببيته الذائع المهيمن:

**وإذا أتتكَ مذمتّي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملَ**

وميزة المتنبي كما أسلفت تفجعه وتحرقه بما يقول، وانصهار روحه بمعاناته، وذوبان حشاشته بقضاياه يقول: واحَرَّ قلبَاهُ، ثم يسكت، فكأن قلبه يريد أن يغادر محله، وكأن ضلوعك تريد أن تنقض. ويقول:

**أصخرةُ أنا مالي لا تحرّكُني هذي المدامُ ولا هذي الأغَاريدُ**

فتشعر أن الرجل حلت به أزمة طاحنة، وكربة ساحقة، وبلية ماحقة، ويصيح باكيًا:

**صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعنَاهم من شأنِه ما عنانا**

**وتولّوا بغصّةٍ كلهم منْـ ـهُ وإن سرَّ بعضُهُم أحيانا**

تسمع هذا فتحس بتعاطف وتضامن معه، فتشاركه هذا الأنين المكبوت، والعبرة المسفوحة. ويضج بحاله ويضيق من عيشه فينفجر شاكيًا:

**أما تغلَطُ الأيامُ فِيَّ بأنْ أرَى بغيضًا تُنائي أو حبيبًا تُقرِّبُ**

فتعتقد أن الرجل ضاقت به الأرض بما رحبت لما اعتراه من هموم وغموم، وتشاهد لوحة من لوحاته الحزينة وإذا به يرسم فيها:

**أريدُ من زمَني ذا أنْ يُبَلِغُني ما ليس يبلُغُه من نفْسِه الزَّمنُ**

ولكنه - ويا للأسف - لم يحظ بنيل حظوظه، وإدراك رغباته؛ لأن مقاصده تنعكس، ومرارته تنقلب خاسئة حسيرة إليه، ويرثي أحد أصحابه فيبدأ البكاء بقوله:

الحزنُ يقلقُ والتَّجملُ يردعُ والدَّمعُ بينهما عَصِيٌّ طيّعُ

فتجد مع ألم المصيبة روحًا وثابةً، وهمةً جامحةً، ونفسًا صامدةً، ولكنها موجعة منهكة.

ويحتَجُّ على الحُمَّى ويصيحُ في وجهها:

أَبِنتَ الدهرِ عندي كلَّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزحامِ

فإذا الرجل مضرس بالأنياب، مجرح بالمخالب، تنهشه النوائب من كل جهة كما يقول:

رمانِي الدَّهرُ بالأرزاءِ حتَّى فؤادي في غِشَاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سِهامٌ تكسرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

فهو يَحْسُو كأس المعاناة قطرة قطرة، ويتجرع غصص الكربات غصة غصة، وسامحه الله، ليته رد الأمر إلى فاطر السماوات والأرض، وسلم له أمره وردد ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا ..﴾ [التوبة: ٥١] إن الناس ليسوا بحاجة إلى كلام بارد ثقيل، يطفئ جذوة الخاطر، ويميت إشراق النفس، لكنهم بحاجة إلى من يترجم مآسيهم، ويشاركهم في أحزانهم، ويعزيهم في مصابهم، ويخفف عليهم من ويلاتهم:

ولابدَّ من شكوى إلى ذي قَرابةٍ يواسيكِ أو يَسْليكَ أو يَتوجَّعُ

إن الشعر التقريري الإخباري أشبه بأخبار الطقس، وأرقام الأسعار، ودرجات الحرارة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤].

إن المتنبي عاش في نعمة الألم، ولذة المعاناة، وسرور الحرمان فقال:

وذو العقلِ يشقَى في النعيمِ بعقلِه وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ

فلا حيَّا الله لذة في جهل، ومتعة في ذلة، وحياة في خضوع، ومرحبًا بموت على عز، ومصيبة على كرامة، وتضحية معها مجد، يقول هو:

جزى اللهُ المسيرَ إليك خيراً وإن تركَ المطايا كالمزادِ

فكل مشقة في سبيل العليا هينة، وكل تعب من أجل المجد راحة، يقول:

يهونُ علينا أن تُصابَ جُسُومنا وتَسْلمَ أعراضٌ لنا وعقولُ

فما دام العرض مصون، والعقل محفوظ، فجرح الجسم سهل يسير.